مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المُرسَلاتِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المرسلات

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المرسلات

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥
عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ
نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤ ﴾

ابتدأت سورة المرسلات بالقسم من الله تعالى بعدد من مخلوقاته، وأول ذلك هو قوله تعالى ﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴾ وتعني المرسلات ما أرسله ويرسله عَزَّ وجل. وقد وصف سبحانه وتعالى هذه المرسلات بالتتابع، وهو ﴿ عُرۡفٗا ﴾ أي: متتابعاً، يتبع بعضها بعضاً. كعرف الفرس. كما قالت العرب: الناس إلى فلان عُرف واحدٌ، إذا توجهوا إليه فأكثروا. وقد شملت دلالة ﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ ﴾ كما ذكر جمهور المفسرين: أنها الرياح، بإرسال الله تعالى لها. وقيل الملائكة، بما يكلفهم الله تعالى به. وقيل الأنبياء والمرسلين، بما يكلفهم الله تعالى به. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والصواب من القول في ذلك عندنا: إن الله تعالى أقسم بالمرسلات عُرفاً، وقد تُرسل عُرفاً الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن الْمَعْنِيَّ بذلك أحد الجنسين دون الآخر، وقد عَمَّ جَلَّ ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كانت صفته كذلك فداخل في قَسَمِهِ ذلك، مَلَكاً أو ريحاً، أو رسولاً من بني آدم مُرسلاً[١] وهذا من سعة الدلالة البيانية في القرآن، بأن استوفت كل من كانت له صفت الإرسال. ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس ذلك لأحد غيره، فلا يُقسم الإنسان إلا بالله تعالى.

ثم أقسم عَزَّ وجل بعد ذلك بنوع ثاني من الرياح، فقال تعالى ﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴾ وهي الرياح الشديدة، وقد أظهر تبارك وتعالى المبالغة في شدتها بدلالة ﴿ عَصۡفٗا ﴾ التي أفادت الشد. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والعاصفات هي الرياح. يُقال: عصفت الرياح إذا هبت بتصويت. ثم عطف عليها بنوع ثالث من

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٥٨٣)

الرياح، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرًا ﴾ هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب عَزَّ وجل[١] وكذلك أظهر تبارك وتعالى شِدَّتَها بدلالة ﴿ نَشۡرًا ﴾ التي أفادت القوة والشدة.

ثم أقسم تبارك وتعالى بنوع رابع من الرياح، وهي التي تُفَرِّق بين السحاب، وهي ﴿ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقًا ﴾ وقد ذكر أهل التفسير في معناها أقوالاً متوافقة الدلالة، من غير تعارض. فقد قيل: أنها الملائكة، تأتي بما يفرق بين الحق والباطل. وقيل: القرآن، يفرق بين الحلال والحرام، وقيل: الريح تفرق بين السحاب. وقيل: الرُّسُل[٢] فمن بلاغة البيان الكريم أن استوفى معناها كل من اتصف بتلك الصفات، وهذا من رحابة أوجه المعاني في القرآن، وغزارة بيانه في الدلالات التي تستوفي المقصود من غير تعارض، ومن غير حاجة لتكرار وتعدد السياق، بأن يفرد لكل دلالة سياق منفرد. كما أن في ذلك إظهار للإعجاز البياني للقرآن الكريم، وذلك باستيفائه للمراد بأوجز بيان.

ثم أقسم تبارك وتعالى بالملائكة التي تُلقي بالكتب على المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقال الله تعالى ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: الملائكة بإجماع. أي: تلقي كتب الله عَزَّ وجل إلى الأنبياء عليهم السلام[٣] فهذا مذهب الجمهور. ويرجح هذا دلالة ﴿ ذِكۡرًا ﴾ فتلقي على المرسلين ما يُذكر العباد بما يجب عليهم من شرائع الدين.

ثم يخبر الله تعالى بأنه أرسل الذي أرسل من المرسلين وما معهم من الكتب ليتحقق به الإعذار والإنذار، فقال عَزَّ وجل ﴿ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴾ إعذاراً من الله تعالى لعباده. وإنذاراً من عذابه. فينزل الوحي على المرسلين بالنذر، ليحصل به أمرين: أحدهما ﴿ عُذۡرًا ﴾ أي: إعذاراً من الله تعالى لعباده. والثاني: ﴿ أَوۡ نُذۡرًا ﴾ أي: إنذاراً من عذابه. ليتحمل كل أحد ما كسب من الخير والشر، ومن الإيمان وتبعاته، ولكفر وتبعاته. فلا يلوماً كل أحد إلا نفسه. وفي هذا تحذير من معصيته، وترغيب في طاعته سبحانه وتعالى، وأن الإنسان مسؤول عن اختياره.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٩/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٤/٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠١/١٩)

وبعد أن أقسم تبارك وتعالى بخمسة من الأقسام المتتالية والتي أثارت التشويق لمعرفة المقسوم عليه، يخبر تبارك وتعالى بعد لك بما أقسم عليه، وهو حقيقة ما أخبر ووعد به جَلَّ جلاله، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾ أي: أن ما أخبرناكم به من الوعد بالبعث والحساب والجزاء لكائن ومتحقق لا محالة.

ثم يخبر بعلامات يوم القيامة التي وعد بها العباد، فقال تعالى ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ أي: إذا ذهب ومُحي نورها. وكذلك ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴾ أي: وإذا السماء فُتحت، وشُقَّت. وكذلك ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴾ أي: وإذا الجبال أُخذت بالنسف السريع، فَدُكَّت حتى تساوت مع الأرض، فكانت كالحب من قوة النسف لها، فأصبحت كثيباً رملاً متجمعاً، ينهال صباً متساقطاً. وكذلك ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴾ أي: حين تُجمع الرسل ليوم القيامة، أي: إذا جُمِعَت ذلك الوقت المحدد والمتعين. كما قال تعالى في سورة المائدة ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ ﴾ فهو الوقت المحدد للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم. ثم يُورد تبارك وتعالى البيان المعظم لذلك اليوم بأسلوب الاستفهام ﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴾ فإلى أي يوم تم تأخير الرسل لهذا الجمع المهول العظيم، فهو استفهام لتعظيم ذلك اليوم الْمُؤجل، وهو يوم القيامة. ثم يأتي الجواب مباشرة منه سبحانه وتعالى، فقال جَلَّ ثناؤه ﴿ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴾ أي: لليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق. وقد أورد سبحانه وتعالى ذلك بأسلوب التعظيم والتهويل، ليكون وعظه على القلوب أوقع. وأعمق وأشد تحذيراً للعباد، من أجل أن يعودوا إلى رشدهم، والدخول في دين الله تعالى.

ثم يزداد التهويل لذلك اليوم، فقال تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴾ وما أعلمك وأعرفك بيوم الفصل؟ سؤال يفيد التعظيم والتهويل لذلك اليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق. بالبعث، ثم الحساب، ثم الجزاء. فقد أورد ذلك سبحانه وتعالى بأسلوب التعظيم والتهويل، ليكون وعظه على القلوب أوقع وأشد تحذيراً للعباد. حتى يعودوا عن غيهم إلى رشدهم، بالدخول في دين الله تعالى.

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ

﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وبعد ذلك التهويل العظيم، الذي أفاد الإنذار، يخبر الله تعالى بحال المكذبين بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا المرسلين لهم من ربهم عزَّ وجل. فبدأ الوعيد بدلالة قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ ﴾ الذي يفيد: الهلاك والدمار والحسرة، ثم يهول الله تعالى ذلك اليوم ويؤكده بدلالة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: ذلك الحين، فالعذاب والهلاك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ للذين كذبوا المرسلين ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا ويصدقوا بآيات الله تعالى، وحججه التي جاء بها المرسلون، فجحدوها وأنكروا دين الله تعالى، وما يتبعه من إنكار البعث والحساب والجزاء والجنة والنار. فالهلاك بالعذاب الشديد لهؤلاء المكذبين في ذلك اليوم الذي وعدهم ربهم به، وهو يوم القيامة. فإن ذلك اليوم الذي وعدناهم به من البعث والحساب والجزاء بالعذاب والهلاك الشديد لهم، فإنه لآتي لا ريب ولا شك فيه. ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد موعد هذا اليوم، ليزدادوا به تفكراً وتخوفاً، وأيضاً لتعظيم التهديد والتخويف لهم. وليشمل ما يكون في الدنيا من القتل والأسر، والبلاء، وما سيكون يوم القيامة من عذاب جهنم وبئس المصير، فاستوفى البيان الكريم كل ما هو قادم من عذاب الله تعالى لهم، وهذا من براعة البيان في كتاب الله تعالى في الاستيفاء.

كما يفيد هذا البيان التحذير من الله تعالى للعباد. بل قد ورد عاماً، لتشمل دلالة ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ جميع الكفرة، ممن كانوا في العهود الماضية من الأمم السابقة، ومن كان في عهده صلى الله عليه وسلم أو ممن لحق بهم، ومن سيلحق بهم إلى يوم القيامة. فهذا هو مصير المكذبين بدين الله تعالى، فاحذروا أيها الناس من ذلك اليوم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الطريق الذي يحصل به العذاب، ليحذروا منه ويجتنبوه. ويتجهوا للطريق المستقيم الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، فيدخلوا في دينه الذي أرسل به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يحذر الله تعالى أولئك المكذبين بما كان منه سبحانه وتعالى من إهلاكه للمكذبين من الأمم السابقة. وبأسلوب السؤال والاستفهام التقريري، الذي يقررهم بما عندهم من العلم بشأن إهلاك الأمم المكذبة السابقة.

فقال تعالى ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ألم يصل إلى علمكم إهلاكنا لمن سبقكم من الأمم المكذبة. وهذا تهديد ووعيد وتحذير بسؤال استفهام تقريري، وتأكيد على ما يعرفون مما حاق بالأمم السابقة التي كذبت بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام، كعاد وثمود، وغيرهم مما لا يخفى عليهم ولا على غيرهم، حيث كانوا يمرون بقوافلهم على

ديارهم. بما يعني ويفيد أليس لكم فيهم عبرة وموعظة؟ فقد أعادهم سبحانه وتعالى للحقائق التي يعرفونها. وبالتالي فإن واجبكم الاتعاظ، حتى لا يكون حالكم كحالهم من الهلاك.

فقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ سؤال استفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَبين من إهلاكه سبحانه وتعالى لمن كذب بالمرسلين من الأمم السابقة. فَيُلْجِئُهُم بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل الذي يدركونه تمام الإدراك. بما يستوجب طاعة الخالق، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يوجههم سبحانه وتعالى إلى تتابع الهلاك في تلك الأمم، فقال عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾

أي: ألحقنا الآخرين بالأولين، في تتابع من غير استثناء ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وبمثل ما فعلنا بمن سبق من المجرمين، فكذلك نفعل بغيرهم. بما يفيد التحذير من سُنَّة ربكم في إهلاك المجرمين. وتم تسميتهم بالمجرمين لأن كل من يُضاد أمر الله سبحانه وتعالى فقد ارتكب جرماً عظيماً، فاستحق به صفة الإجرام كاملة. فأسماهم بالمجرمين، لعظيم جرمهم، وعظيم ما اكتسبوا به من الإثم، وعظيم عذاب الله تعالى لهم. فنسأل الله تعالى العافية والسلامة.

ثم يكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة الثانية بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينالهم من العذاب. فالهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا المرسلين لهم من ربهم عَزَّ وجل. وهم الذين لم يؤمنوا ويصدقوا بآيات الله تعالى وحججه التي جاء بها المرسلون، فجحدوها وأنكروا دين الله تعالى، وما يتبع ذلك من إنكار البعث والحساب والجزاء والجنة والنار.

ثم ينقلهم تبارك وتعالى إلى حقيقة خَلْقِهم، وضعفهم، وَتَفَضّله عليهم بالإيجاد من غير حول منهم ولا قوة، وبأسلوب السؤال التقريري، الذي يقررهم بما يعرفون. فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ألم نخلقكم أيها المكذبين كغيركم من الناس، من نطفة رقيقة، وضعيفة ليس لها قوة، حتى اتصفت بالمهين الضعيف الذي ليس له وزن عند الإنسان. فهي من نطفة الرجل وبويضة المرأة، لتتعاقب السلالة البشرية. وهو سؤال استفهام يُعيدهم إلى حقيقة خلقهم، وضعف مادة تكوينهم، ليتبين لهم كمال قدرة الله تعالى، وضعفهم، وإنعام ربهم عليهم بالإيجاد بعد العدم. ليستثير تفكيرهم في الحقائق التي تستوجب إيمانهم، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ سؤال استفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَبين من إبداعه العظيم سبحانه وتعالى في خلقه لهم، وللإنسان عموماً. فَيُلْجِئُهُم بذلك إلى الحقيقة

والبرهان والدليل المحسوس الذي يدركونه تمام الإدراك. بما يستوجب طاعة الخالق، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين جَلَّ جلاله كمال قدرته، بحفظ هذه النطفة بتدبيره وقدرته، فجعلها في مكان آمن حتى تنموا، ويتكون منها الجنين، فقال سبحانه وتعالى ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ فجعلنا هذه النطفة ﴿ فِى قَرَارٍ ﴾ أي في مكان، متصف بأنه ﴿ مَّكِينٍ ﴾ أي: حصين وحريز. وهو الرحم، الذي خلقه الله تبارك وتعالى في جوف الأنثى، ليكون وعاءً حصيناً، وحافظاً للحمل، فتكون هذه النطفة وتحولاتها في حرز من الاستقرار والثبات، والتمكن من الاستقرار الذي قضى الله تعالى به حتى بلوغ أمره لما بعده من أطوار الخلق والتكوين.

وقد لفت البيان انتباههم إلى أن هذا التقدير هو بقدرته عَزَّ وجل ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ ﴾ فأظهر تبارك وتعالى الجعل له، فهو الذي جعل هذا الماء المهين الضعيف في هذا القرار المكين. بما يُظهر عظمة تدبيره جَلَّ شأنه. مما يبين أهمية لفت الانتباه في التوجيه والتعليم إلى تدبير الله تعالى في الأنفس وغيرها، لِمَا في ذلك من تفتيح العقول والأذهان على عظيم قدرة الله تعالى، وضعف هذا الإنسان، الذي لا ملجأ ولا منجى له إلا بربه عَزَّ في علاه.

ثم يبين جَلَّ شأنه تقديره الزمني لمدة وزمن مراحل الخلق والتكوين، حتى يخرج مولوداً من ذلك الحرز الذي هو رَحِم المرأة. فقال تعالى ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وهي المدة المعينة للحمل في بطن أمه، والتي قضاها الله تعالى من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ فقدرنا خلقه، وهيئته، وجنسه: سواء كان ذكراً، أو أنثى، وذلك بكمال قدرتنا العظيمة. ثم لفت انتباههم إلى ما ينبغي عليهم تجاه ربهم الْمُنْعِم والقادر. فقال تعالى ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ فنعم القادرون نحن. فإن تقديرنا كان أحسن التقدير من كل وجه. فهو ثناء من الله تعالى على كمال تقديره، الذي يستوجب شكره وتعظيمه وطاعته.

ثم يتوعد سبحانه وتعالى من أنكر هذا الإنعام، وأنكر دينه، وكذب برسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة الثالثة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينالهم من العذاب لمن أنكر وكذب. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

وبعد أن أثار سبحانه وتعالى تفكيرهم بدلائل قدرته في خلقهم من ماء مهين، وحفظه في قرار مكين، وأنه قَدَّرَهُ أكمل تقدير، فإنه سبحانه وتعالى ينتقل بهم وبتفكيرهم وانتباههم إلى عجائب قدرته في خلق هذا الكون

العظيم، فقال تعالى ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴾ ألم يجعل ربكم الأرض من سعتها وقوتها ﴿كِفَاتًا ﴾ أي: تجمع وتحوي وتضم ﴿ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴾ الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها. قال القرطبي رحمه الله تعالى: كفت الشيء أكفته: إذا جمعته وضممته، والكفت الضم والجمع[1] وهو سؤال استنكار على من لا يتدبر ويستدل بذلك على عظمة الخالق، ودقة تدبيره، وعظيم سلطانه، ورحمته بعباده، وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل به على وحدانية الله تعالى، فيمتثل لرسوله صلى الله عليه وسلم. ألم تشاهد بعينك هذا التكوين العظيم، وهذا الاحتواء الواسع الذي لا يضيق بأهل الأرض. فإنه سؤال يستثير العقول والانتباه إلى كمال تدبيره عَزَّ وجل، والذي يستلزم توحيده وإفراده بالعبادة. وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم لفت تبارك وتعالى الانتباه إلى مغزى وعلة وجود الجبال على الأرض، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴾ أي: وضعنا في الأرض الجبال الشاهقة القوية، لتثبيت الأرض حتى لا تتحرك، فيختل سكونها الذي هو أصل استقرار حياة العباد ومعاشهم، ولم يذكر سبحانه وتعالى الجبال باسمها، بل ذكرها بصفتها ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾ والتي تبين العلاقة بينها وبين الأرض، وكذلك بينت وأظهرت الصفة التي توضح المقصد من وجودها ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ ﴾ فذكر سبحانه وتعالى صفتها التي يتحقق بها الثبات من خلال بيان شموخها بالارتفاع الشاهق. فقد أعطت دلالة ﴿ شَٰمِخَٰتٖ ﴾ عظمة العلو والارتفاع. وفي هذا شد الانتباه إلى القوة التي لا يمكن أن تُوصَف بها إلا الجبال، فقد تم تعريفها بوظيفتها لكم. التي هي رساوتها وقوتها، وشأنها في الأرض، وقد نسب عَزَّ وجل خلقها ووضعها وعلتها له سبحانه وتعالى ﴿ وَجَعَلۡنَا ﴾ بضمير المتكلم، الذي يفيد تعظيم ما ألقى، وما دَبَّر بها لكم وللأرض، وتعظيم وتفخيم وإجلال الخالق الذي خلق ودبر وصنع.

كما تضمنت الآية الكريمة نعمة جريان الماء الذي يعيش به الإنسان، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴾ وأسقيناكم ماء طيباً، عذباً. فلفت تبارك وتعالى انتباه وفكر الإنسان إلى نعمة الماء المتدفق بجريانه فوق الأرض، وما ينبع منها، وما يحفره الإنسان من الآبار. فَقَدَّرَهُ تقديراً عظيماً، بل وجعله سبحانه وتعالى ﴿ مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴾ وهو الماء العذب، الذي يرتون منه، ويسقون بهائمهم، وزروعهم. ولفت انتباههم إلى تفضله بهذا الإنعام،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٥/١٩)

فأظهر تبارك وتعلى امتنانه بأن نسب عَزَّ وجل عملية السقيا منه سبحانه وتعالى لهم ﴿ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم ﴾ بضمير المتكلم، الذي يفيد تعظيم ما أنعم به، وما دبر به حياتهم ومعاشهم، وما يستلزمه ذلك من تعظيم الذي خلق ودبر وصنع. فإن الذي أوجد هذا التجانس: نوعاً وكثرة بين حاجتكم للماء وإيجاده لهو الحكيم الخبير، بل أوجد ما تحتاجونه بما يفوق احتياجكم، فكلما كان له الإنسان أحوج كان وجوده أكثر، كالماء والهواء والزروع والحديد، وكلما قل احتياجهم له قَلَّ وجوده، كالذهب، وبقيت المعادن. مما يدل على عظيم تدبيره جَلَّ جلاله.

ثم يتوعد سبحانه وتعالى من أنكر هذا الإنعام، وهذا التدبير، وأنكر دينه، وكذب برسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين يكذبون بالدين، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالآيات والحجج، مع هذا الإنعام العظيم. فإن هذا الإنعام يدل على عظيم تدبيره عَزَّ وجل، والذي يُثبت لهم مراده جَلَّ جلاله من خلق الخلق، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة الرابعة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينالهم من العذاب لمن أنكر وكذب. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ
﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا
يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

وينتقل البيان الكريم إلى الوعيد والتهديد بما سيلقاه الكفرة يوم القيامة من المهانة والعذاب الشديد، فقال تعالى ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فيقال لهم يوم القيامة سيروا بانطلاقكم واتجاهكم إلى ما كنتم تكذبون به في الحياة الدنيا، وهو تكذيبهم بيوم القيامة، وما فيه من البعث والحساب والجزاء، والعذاب المهين لمن كفر ولم يؤمن. ثم يقال لهم كذلك بالمزيد من التوصيف المرعب المهين ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴾ إي: انطلقوا إلى ظل دخان جهنم الذي افترق إلى ثلاث فرق ﴿ ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴾ والشُّعَب مفردها شِعْب، وهي الفِرَق. فمن شدة تَلَهُّب نار جهنم يتعالى دخانها كالظلال. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: ظل

من دخان جهنم، قد افترق ثلاث فرق. وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شُعَباً[١] وفي هذا بيان لهول وشدة نار جهنم، وتعاظم عذابها على الكافرين. لِيُحَذِّرَ به سبحانه وتعالى عباده من أهل الكفر، مما هم قادمون عليه، فإن أولى لهم طاعة الله تعالى، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول تبارك وتعالى عن ذلك الظل الذي هو دخان نار جهنم ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: فإنه ظل لا يمنع ويخفف من حر جهنم، ولا يغني الكافرين عن الدخول في لهيبها، فعلى شدته، فإنه لن يغنيهم عن دخول جهنم، ليفيد الجزم لهم بدخول النار، والاشتواء فيها. ونعوذ بالله تعالى من النار وعموم العذاب، والمسلمين أجمعين.

ثم يصف تبارك وتعالى جهنم التي هم مُقبِلُون عليها، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ فإن نار جهنم ترمي وتقذف بشرارها المتطاير وكأنه من عظمته في حجمه من مباني القصور. فكل شرارة من شرارات النار كالقصر. وهو مفرد القصر العظيم في بنائه وقوته وشدته. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كالقصر العظيم. وعنه رضي الله عنه، وعن الضحاك: أنه كأصول الشجر العظيم. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، بعد أن أورد الأقوال: وأولى التأويلات: أنه القصر من القصور، وذلك لدلالة قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ والعرب تُشبه الإبل بالقصور المبنية[٢] فأفاد قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ المزيد من الوصف، بأنها كالنوق السود. قال صاحب تفسير الجلالين رحمها الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾ جمع جمل ﴿صُفْرٌ﴾ والعرب تُسَمِّي سُود الإبل صفراً، لشوب سوادها بصفرة[٣] أي: أنها سود تضرب إلى الصفرة[٤] بما يفيد تنوع حجم شرار نار جهنم، فبعضه كالقصر من ضخامته، والبعض كحجم الجمال السود التي تضرب إلى الصفرة، من شدة لون شرارها. وبما يفيد التحذير والإنذار، وبما يبين رحمة الله تعالى بإنذاره عباده، لأن الله تعالى لا يريد لعباده العذاب أصلاً، بما أورده من الحجج والإنذار الذي بلغ إلى هذا الوصف. ولكن بعض العباد يريد المعصية استعجالاً بمفاتن الدنيا، فيؤثر الدنيا على الآخرة.

ثم يتوعد الله سبحانه وتعالى من أنكر يوم القيامة، ولم يؤمن بدين الله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لمن كفر وكذب بعد هذا

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/٣٥٩)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٦٠١-٦٠٤)

(٣) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، ص (٥٨١)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٤/٦٨١)

البيان والإنذار العظيم. فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة الخامسة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينال المكذبين من العذاب لمن أنكر وكفر. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

ثم يصف سبحانه وتعالى حال الكافرين ذلك اليوم، فقال عَزَّ وجل ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ فهذا اليوم الذي هو يوم القيام ﴿ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي: لا يتكلمون أبداً. وهذا في بعض أحوال يوم القيامة، فهناك أحوال يتكلمون فيها كما في قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ مما يبين أن يوم القيامة له أحوال، فيخبر الله تعالى بتلك الأحوال في كتابه القرآن العظيم.

ثم عطف تبارك وتعالى على تلك الحال عدم السماح لهم بالاعتذار، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ولا يُسمح لأحد من الكفرة أن يعتذر عما كان منه من الكفر، لأنه لن يُقبل منهم الاعتذار، وقد قامت عليهم الحجة البينة الواضحة.

ثم يتوعد الله سبحانه وتعالى هؤلاء الكفرة المكذبين بما سيلحقهم من العذاب الشديد فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لمن كفر وكذب بعد هذا البيان والإنذار العظيم. فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة السادسة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينال المكذبين المنكرين من العذاب. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد هو للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

وفي ذلك اليوم العظيم يوبخهم الله تعالى بما كان من تكذيبهم بيوم القيامة، فيقول الله تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هذا هو اليوم الذي يتم فيه القضاء بين الخلائق ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ فيفصل فيه بين العباد، ويفصل فيه بين المؤمن والكافر، وهو الذي كنتم به تكذبون وتنكرون. فهذا هو اليوم الذي يتم فيه الفصل بين الخلائق فيتمايزون. والفصل يكون بالحساب والجزاء، فينفصل فيه أهل الطاعة والإيمان بما فازوا به، ويندحر فيه أهل الكفر والنفاق بما كان منهم من الكفر. فقد كانوا ينكرونه ويكذبون به في الدنيا. ثم يخبر جَلَّ جلاله بجمعه لجميع الخلائق ﴿ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: جمعناكم يا من كذبتم بمحمد صلى الله عليه وسلم مع من سبقكم من المكذبين بالرسل. مما يبين عظمة تدبير الله تعالى. وأن يوم البعث يوم حقيقي، لا ريب ولا شك فيه. فأولى لكل حي أن يؤمن ويصدق بما جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا عرض واضح من الله سبحانه وتعالى لِمَا سيكون من حال المكذبين في الآخرة، بما يفيد أن عليكم أيها المكذبون اغتنام حياتكم الدنيا، فآمنوا بما رأيتم من الحجج والآيات التي تتعايشون معها في الدنيا. فإن الذي خلقكم وخلق هذا الكون قادر على كل شيء، ومنه البعث والحساب والجزاء. فآمنوا واتبعوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لكم.

ثم يزداد التهديد والتوبيخ لهم، وذلك ببيان ضعفهم، وانحطاط قدراتهم التي كانوا يتباهون بها في الدنيا، فأصبحوا يوم القيامة مسلوبين من كل قدرة. فقال تعالى توبيخاً وإهانة لهم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ فإن كانت لكم قوة تستطيعون أن تتخلصوا مما أنتم فيه، فافعلوا ما تستطيعون. وأورد سبحانه وتعالى ذلك بدلالة الكيد ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ لأن الكيد يعني التدبير للأمر بحيلة، فإن كانت لكم حيلة فاحتالوا، ليفيد كمال العجز، والتعجيز المهين. وفي هذا تذكير لهم بما كان منهم من الكيد لدينه ولرسله جميعاً عليهم الصلاة والسلام. ليزدادوا كيداً، وغماً، وأسفاً. فيجتمع عليهم العذاب النفسي مع العذاب الجسدي.

ثم يزداد الوعيد والتنبيه من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الكفرة المكذبين بما سيلحقهم من العذاب الشديد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لمن كفر وكذب بعد هذا البيان والإنذار العظيم. فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة السابعة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينال المكذبين من العذاب لمن أنكر وكفر. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ثم بعد البيان لأحوال المكذبين بيوم القيامة، يتجه السياق الكريم إلى بيان حال المتقين. لإظهار المفارقات التي تُوجب الطاعة والامتثال. فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ إن حال وشأن أهل التقوى اليوم أنهم ﴿ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ أي: تحت ظلال الأشجار، وظلال القصور، وذلك من كمال الرفاهية التي

يعيشونها، وكذلك ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أي: ومع هذه الظلال العيون من الماء الزلال الذي سيكونون فيه، وسط البساتين، وبين الأنهار، يتنعمون فيها.

وقد أعطت دلالة ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بيان حالهم في الدنيا، بأنهم اتصفوا بالتقوى التي جمعت الخوف من الله تعالى، والرغبة والطمع فيما عنده تبارك وتعالى، فاجتهدوا في اتقاء ما يُغضب ربهم عَزَّ وجل، واجتهدوا في طاعته جَلَّ جلاله، بالسعي في رضاه، فإنهم في الآخرة ﴿ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي سيكونون في البساتين، بين الظلال وبين الأنهار، يتنعمون فيها. وقد بدأ وصف حال المتقين بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يفيد ثبوت ما سيكونون فيه من النعيم، وجاء السياق على وجه التحقق، فلم يكن على صيغة المستقبل، بالرغم من أن هذا في الآخرة التي سيعودون إليها مستقبلاً، لكنه ورد الوصف لحالهم وكأنه قد تحقق، إمعاناً في التأكيد، والتشويق والاطماع والترغيب لهذا الإنسان بأن يكون من المتقين، فأعطى السياق قوة في تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز الدلالي، وكمال القدرة، وأفاد النص الكريم عظمة منزلة المتقين التي يجب أن يتسابق لها المؤمنون، والناسُ أجمعين.

ومن جميل البيان أن وصف سبحانه وتعالى الأنهار بالعيون، وهي الينابيع التي ينبع منها الماء، ثم يجري كالنهر. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل[1] وهو قوله تعالى في سورة محمد ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ وفي ذكر العيون ما يدل على أن الأنهار منبثقة في جريانها من ينابيع متعددة، حيث جاء وصفها بصيغة الجمع ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ الذي يفيد الكثرة والتعدد وسعة الانتشار في جميع إنحاء الجنة، فأينما ذهب أهلها وجدوها تتدفق فيها. وكذلك وردت الظلال بصيغة الجمع ﴿ فِى ظِلَـٰلٍ ﴾ ليفيد كثرتها، وامتدادها. اللهم إنا نسألك والمسلمين أجمعين الجنة وما قرب إليها من قول وعمل.

ثم يخبر تبارك وتعالى بالمزيد عن نعيم المتقين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وللمتقين من الفواكه جميع ما يشتهون ويطلبون. وقد أفادت دلالة ﴿ مِمَّا ﴾ التنوع والتعدد المرتبط بما يشتهون. فارتبطت

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢/١٠)

﴿ مِمَّا ﴾ بما يشتهون لتعطي تأكيد وجود جميع أصناف ما يشتهون، فلا ينقص منه شيء أبداً. مما يبين قوة البيان في التخصيص والتعين، إذ لم تقع ﴿ مِمَّا ﴾ على الفواكه، بل على ما يشتهون، لإفادة الدوام المستمر الذي لا ينقطع، فليس للفواكه مواسم كما هو الحال في الدنيا. بل نعيم لا ينقطع مما يشتهون.

ثم يذكر جَلَّ جلاله نوع هذا النعيم من حيث الطعام والشراب، وكذلك علة وسبب هذا التكريم العظيم للمتقين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيُقال لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنة من باب الترحيب، والعناية والتكريم ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ كلوا واشربوا ما شئتم في نعيم وهناء. وقد ورد التوجيه لهم بالأكل والشرب بحذف القائل لهم، من باب تفخيم الاستقبال لهم ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا ﴾ أي: كلوا واشربوا ما شئتم في هناء، وليهنأكم ما أنتم فيه وصرتم إليه من النعيم المقيم. والهنيء هو ما تُؤْمَن عاقبته، وما أعقب نفعاً وعافية، ولم يعقبه أذى، ولا إثم. وهو الطيب المساغ الذي لا ينقصه شيء من الأطايب، فقد اكتمل طيبه، كما يعني الحلال الذي لا إثم فيه.

ثم يذكر تبارك وتعالى سبب ما ناله المتقون من هذا النعيم العظيم الذي لا يخطر ببال أحد، فقال عَزَّ وجل ﴿ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ليهنأكم ما أنتم فيه بسبب ما كان منكم من العمل بالتقوى التي أوصلكم الله تعالى بها إلى هذا المقام الكريم. فحصلتم على هذا النعيم بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من الأعمال الصالحة التي تستحقون بها هذا العطاء الذي وعدناكم به. مما يدل على عظيم عطاء الله تعالى وإحسانه، وعظيم كرمه، وعظيم خلقه وتدبيره. بل ويُرَغِّب العباد فيما عنده من النعيم المقيم، وذلك بوصف الجنة، وكأنهم ينظرون إليها. مما يستوجب على العباد الالتزام بدين الله تعالى، ليحصلوا على هذا النعيم المقيم الذي لا ينقطع ولا يزول، وأن يجاهد الإنسان نفسه في هذه الدنيا القصيرة، المليئة بالنصب والكدح والتعب، والمفاتن والمغريات الزائلة ليكون من المتقين، فيفوز بهذا الفوز العظيم الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول.

ثم يقول تبارك وتعالى عن هذا الجزاء للمتقين ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فبمثل هذا الجزاء العظيم نحققه أيضاً للمحسنين، ونكافئهم به على ما كان منهم من الإحسان. وجملة ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تتضمن تكفل الله تعالى بجزاء كل محسن، فقد أكد ذلك تبارك وتعالى بضمير العظمة والتفخيم ﴿ إِنَّا ﴾ بما يفيد كمال العناية بمن اتصف بالإحسان حتى كان الإحسان صفة له. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: بمثل ذلك الجزاء الذي جازينا به المتقين نجازي كل محسن، الذي صَدَق مع ربه تبارك وتعالى، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم. فنجازي كل مؤمن اتصف بالإحسان في القول والعمل بمثل ذلك.

والمحسن هو الذي ترسخ فيه الإحسان حتى صار صفة له. وقد قال صلى الله عليه وسلم عن معنى الإحسان (هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١] فينبثق عن هذا التَّعَبُّد لله تعالى أعمال الإحسان في الطاعة لله تعالى، والإحسان مع الغير. وفي هذا حث للمؤمنين بأن يجعلوا من أنفسهم محسنين، وراسخين في الإحسان بأقوالهم وأفعالهم، ليكون لهم الفضل من الله تعالى، وإبقاء سيرتهم مقترنة بالمدح والثناء الطيب.

ومن براعة ودقائق السياق الكريم أن الله تعالى قطع الحديث عن حال المجرمين يوم القيامة، وانتقل إلى بيان حال المتقن، ليعود بعده مرة أخرى لحال المجرمين يوم القيامة. وفي هذا ما يفيد إظهار منزلة المتقين أثناء بيان حال المجرمين يوم القيامة. بأنه الشأن المهم الذي استوجب قطع الحديث والانتقال لغيره، ثم العودة إليه. لأن قطع الحديث في شأن آخر لا يكون إلا لأهميته التي تستوجب قطع الحديث والاستئناف فيما بعد.

وبعد أن قطع تبارك وتعالى الحديث عن حال المجرمين يوم القيامة، لِيُظهر الله تعالى حال المتقين، وما لهم من النعيم المقيم يوم القيامة، فإنه يعود إلى استئناف بيان حال المكذبين يوم القيامة. فيبدأه بالتهديد والتهويل للمكذبين. فقال تعالى ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لمن كفر وكذب بعد هذا البيان والإنذار العظيم. والكشف لكم عن حال المتقين في الآخرة، وما يتنعمون به من النعيم المقيم. فكرر تبارك وتعالى هذا التهديد والوعيد للمرة الثامنة، بعد بيان موجبات التصديق والايمان ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينال المكذبين من العذاب لمن أنكر وكفر. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

ثم يتدرج الوعظ للعباد بأسلوب الإمهال الذي يحمل معنى قوة الوعيد والتهديد، فيقول تبارك وتعالى ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴾ فكلوا واستمتعوا في حياتكم الدنيا بما تشتهون، غير أنه قياساً على الحياة الأبدية في الآخرة فإنه قليل ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا ﴾ فإن جميع زمن حياة الدنيا قليل، قياساً على حياة الآخرة الأبدي. مما يبين ويفيد أن الله تعالى لا يعاجل العباد، لأنه حليم، فيمهلهم حتى يومهم الذي يصعقون فيه.

ثم ينعتهم ويصفهم بما هم عليه من الحال ﴿ إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴾ أي: كافرون. وتم تسميتهم بالمجرمين لأن كل من يُضاد أمر الله سبحانه وتعالى فقد ارتكب جرماً عظيماً، فاستحق به صفة الإجرام كاملة. فأسماهم بالمجرمين، لعظيم جرمهم، وعظيم ما اكتسبوا به من الإثم، وعظيم عذاب الله تعالى لهم. فنسأل الله تعالى العافية والسلامة. وقد وصف الله تعالى المجرمين في سورة الصافات، فقال تعالى ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٠) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٩)

﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ فأقوى الإجرام هو الكفر بالله تعالى.

ثم يزداد الوعيد والتنبيه من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الكفرة المكذبين بما سيلحقهم من العذاب الشديد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لمن كفر وكذب بعد هذا البيان والإنذار العظيم. فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة التاسعة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينال المكذبين من العذاب لمن أنكر وكفر. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن من صفات هؤلاء المجرمين أنهم لا يستجيبون للعبادة التي رأسها وعمودها الصلاة، فقال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ فإذا أُمروا بالصلاة فإنهم لا يصلون. بما يفيد إظهار مخالفتهم لما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة ربهم بأداء الصلاة. فإنهم لا يأتمرون بأمره، ولا ينتهون عن نهيه. فهم قوم عناد، بالرغم من معرفتهم لحقيقته صلى الله عليه وسلم، وحقيقة ما يدعوهم إليه. وفي اختيار الصلاة من بين العبادات وذلك لِمَا تميزت به من مكانتها بين العبادات، وبكونها مظهر أهل الإيمان في الدنيا، فهي ظاهرة الأداء. كما ورد إظهار الصلاة من خلال صفة الركوع، حيث قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ لِمَا في الركوع من الانحناء والتذلل والمطاوعة لله تعالى. مما يدل على دقة الوصف في البيان الكريم. واختيار الهيئة والصفة المناسبة للحال والبيان.

ثم يزداد الوعيد والتنبيه من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الكفرة المكذبين بإظهار ما سيلحقهم من العذاب الشديد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لمن كفر وكذب بعد هذا البيان والإنذار العظيم. فكرر تبارك وتعالى التهديد للمرة العاشرة بعد بيان موجبات التصديق والإيمان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد التأكيد، والتنبيه بقوة ما ينال المكذبين من العذاب لمن أنكر وكفر. فإن الهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

ثم يذكر جَلَّ في علاه حال المكذبين مع قوة هذه الحجج والبراهين من الآيات، وذلك بسؤال استنكار لكل من لم يؤمن بها ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ فبأي حجج سيؤمن ويصدق هؤلاء؟ فمن لم

يؤمن بهذه الحجج والبراهين، فبأي حجج سيؤمن ويصدق؟ بما يدل على قوة هذه الحجج التي ليس بعدها أقوى وأدل منها. وكذلك استدلال على قوة عناد من عاند وكفر. فَقَد وَجَّه اللهُ تعالى سؤال استفهام، يفيد التقريع والتوبيخ نحو عناد من لم يؤمن بهذه الحجج والبراهين التي ساقها الله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فما هو الحديث، وما هي الآيات التي يريدونها ليؤمنوا؟ إنه تعجب من أمرهم وحالهم. فبأي حديث يؤمنون بعد هذا الذي سقناه لهم من الحجج والبراهين العظيمة؟ بما يفيد أن التفكر والتأمل في آيات الله تعالى الكونية، والمقروءة والمسموعة يدفع بالإنسان إلى التصديق والإيمان، وإلى اللحاق بركب أهل الخير، والبعد عن المعاصي، وعن شهوات الدنيا وغرورها وزخرفها. وأن في تجاهل الآيات ما يجعل المرء يتعالى ويتكبر أمام مغريات الدنيا، وغرور النفس، وتزيين الشيطان لسوء العمل. فهذه الدلائل من الحجج والبراهين تستوجب الإيمان والتصديق. وبالتالي كيف ينحرفون عنها؟ بما يُثْبِت أن انحرافهم ما هو إلا عناد وكبر، وأنهم أيقنوا في نفوسهم بالحق. فنسأل الله تعالى العافية والعفو والهداية والثبات على الحق والتوفيق، وحسن الخاتمة.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة المرسلات. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.